

المدرسة الصوفية العرفانية في الكوفة

(العارف بهلول بن عمرو الكوفي انموذجاً)

ا.م.د. ياسين حسين علوان الويسي

استاذ الفلسفة الاسلامية / كلية العلوم الإسلامية / جامعة بغداد

المقدمة

ان الحديث عن مدرسة الكوفة العرفانية يسوقنا لمعرفة جوانب اخرى. فلا بد من معرفة طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية في الكوفة ولا بد من تسليط الضوء على الاسباب التي ادت الى نشأة التصوف والعرفان في الكوفة وقبل هذا وذاك لا بد من بيان أهمية وفضائل هذه المدينة فانها ومسجدها رابع مقدسات المسلمين.

ان اعلام الزهد والتصوف في الكوفة كثيرون ابتداءً من زهد امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ومن ثم رهط من الصحابة الذين اقاموا بالكوفة الى التابعين الذين ظهرت عليهم حلة الزهد واسم التصوف. حتى تشكلت مدرسة صوفية عرفانية بابها امير المؤمنين علي السلام الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يا علي ان الله قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة احب الى الله تعالى منها: هي زينة الابرار عند الله عز وجل الزهد في الدنيا.) كذلك من الصحابة الذين لمعت اسمائهم في هذه المدينة. عبد الله بن مسعود (ت ١٣٢ و ٣٣هـ) رضوان الله عليه. وحذيفة بن اليمان (ت ٣٦هـ) رضوان الله عليه. وابو موسى الاشعري (ت ٤٢هـ) رضوان الله عليه. وهؤلاء الى جانب عدد كبير من التابعين. على رأسهم اويس القرني والربيع بن خيثم (ت ٦٧هـ) وسعيد بن جبير (ت ٩٥هـ) وطاووس بن كيسان (ت ١٠٦هـ) وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ) وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ) ووعبدك الصوفي (ت ٢١٠هـ) وابن السماك وعلى خلاف من يرى انه لا توجد في الكوفة مدرسة صوفية فاننا نرى ان مدرسة الكوفة الصوفية هي من المدارس الاساسية في التصرف الاسلامي القائم على الكتاب والسنة وسيرة رسول الله وآل بيته صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين فزهدهم كان لمعين الاول لهذه المدرسة وسوف نعرض لذلك في ثنايا البحث بشيء من التفصيل مع الاشارة الى المنهج العرفاني الذي ظل قائماً في الكوفة الى يومنا هذا. ونستدل على رأينا بقيام مدرسة

صوفية في الكوفة ان الباحثين في تسمية الصوفي لا تتجاوز "عبدك الصوفي" ابو هاشم الصوفي او جابر بن حيان الكوفي وجميعهم من الكوفة. واما كون المدينة شيعية فالتصوف اساسه كأسم الزهاد الشيعة وسنوثق ذلك من دراستنا في هذا الشأن وكان منهجي الذي اعتمده هو المنهج التاريخي والتحليلي اما خطتي في هذا البحث فهي انني جعلته في مبحثين الاول كان حول الكوفة، ومدارسها ومدرستها الصوفية. اما الثاني فقد جعلته مخصصاً لشخصية من شخصيات المدرسة الكوفية في التصوف وهي شخصية العارف بهلول بن عمرو الكوفي وعرضت حياته وفضله. وقد ختمت بحثي بخاتمة تضمنت اهم ما توصلت اليه من نتائج في هذا البحث.

والله الموفق للسداد والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحابته المنتجبين رضوان الله تعالى عنهم الى يوم الجدين.

المبحث الأول: الكوفة ومدرستها الصوفية.

المطلب الأول: نشأة الكوفة وطبيعتها الاجتماعية.

الكوفة: مدينة عراقية على ساحل نهر الفرات مصرها القائد سعد بن ابي وقاص وفق امر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بان يرسل سلمان وحذيفة ليختار موقعاً برياً بحرياً ليس بينه وبين عمر في المدينة المنورة، بحراً ولا جسراً. وبعد البحث اختار سلمان وحذيفة الكوفة ونزل بها سعد بن ابي وقاص وقادها من المدائن في المحرم من سنة سبع عشرة للهجرة. وتولى سعد ولاية الكوفة منذ ان اختطت ولمدة ثلاث سنين ونصف^(١).

وللكوفة اسماء عديدة، ما سبب تسميتها بالكوفة فقليل نسبة إلى تل صغير في وسطها يقال له كوفان، وربما سميت بهذا الاسم نسبة الى تلال (سانيدما) التي تحيط بها كالكخافة عليها، وقيل انها اختطت في منطقة اسمها كوبخة بن عمر^(٢).

"وقد غير عمر بن الخطاب والي الكوفة اكثر من مرة وكذلك فعل عثمان^(٣) وجاء في نهج البلاغة ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - انه كتب الى اهل الكوفة كتاباً يقول فيه "من عبد الله امير المؤمنين الى اهل الكوفة جبهة الانصار وسنام العرب"^(٤) وهذا القول شهادة في حق اهلها فيكفيها في ذلك شرفاً. وكان تمصير الكوفة

بعد تمصير البصرة بعام او بعامين. ومع ذلك "فان الكوفة كانت قبلة انصار العرب وزعمائهم وقادتهم^(٥)."

أما في مرحلة النشأة

النشأة فقد سكنها المقاتلين فكان اختيار الموقع لاسباب جغرافية واسباب عسكرية. اما القبائل التي سكنت الكوفة في بداية تأسيسها فكانت قبائل يمانية تمثل الاغلبية وأقلية فارسية هم الحمراء الذين انضموا الى الجيش الاسلامي في القادسية. وكلا العنصرين متحضر ووارث حضارة سواء اليماني الذي ورث حضارة اليمن او الفارسي الذي يحمل ارث الحضارة الفارسية^(٦). يقول الدكتور الشيبلي (فكان ما ظهر من ثقافة وحضارة في الكوفة أصيلاً له طابع الكوفة الخاصة^(٧)).

ومن القضايا الاصلية في المجتمع الكوفي ان (ظهر التشيع لآل البيت - عليهم السلام - وقام الصوفية بدورها في السياسة. وسواء اكان اول من تسمى بإسم الصوفي جابر بن حيان + الكوفي - الشيعي أو ابو هاشم الكوفي فإن هذا الاسم ظهر اول ما ظهر في "الكوفة" التي كانت أرامية الثقافة متأثرة بالمذهب المانوي الذي ظهر في تصوف الكوفيين في مسألة الحب الالهي^(٨)). الى جانب كل هذه الثقافات التي تأثر بها المجتمع الكوفي فقد (كان للتشيع أثر غير قليل في تصوف مدرسة "الكوفة" بل كان يطلق على مذهب يكاد يكون شيعياً ظهر بها وكان آخر أئمتها عبدك الصوفي الذي توفي سنة ٢١٠هـ^(٩)). اما صفة الكوفة فقد (اتصفت بالاصالة العربية... فقد كان اليمانيون على جانب من الحضارة اتاح لهم ان يتغلبوا على الأثارة الواردة الى الكوفة من الحضارات الاجنبية وان يهضموها^(١٠)). والكوفة التي امرت الحواضر الاخرى بالزهد والتصوف فمن "الكوفة" انتشر التصوف الى ما وراء العراق، وبخاصة في ايران.

حيث كانت المزدكية منتشرة قبل الاسلام. وفي ايران ظهرت صوفية متعددة مختلفة في اتجاهاتها النظرية والعملية^(١١)).

اما الكوفة التي هي مدار البحث (فقد كانت في تخوم الكوفة بقايا الاديان الفارسية القديمة من مانوية ومزدكية وزرادشوية ومندائية^(١٢)). وبالرغم من ان عفيفي تشكك في اول من اطلق عليه اسم الصوفي ولكنه يؤكد انه ظهر في الكوفة في حين يؤكد نيكلسون

نقلًا عن عبد الرحمن الجامي: (ان اول من تسمى صوفياً هو ابو هاشم الكوفي^(١٣)). وذكر الجامي أيضاً عن سفيان الثوري قال:- (لولا ابو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرباء. وقال ايضاً عنه: ما علمت معنى الصوفي حتى رأيت ابا هاشم الصوفي^(١٤)). اذن وفق ما تقدم فان الكوفة هي الاساس في نشر التصوف الاسلامي في الامصار الاخرى. وسوف نعرض لمدارس الكوفة ومدارسها الصوفية على وجه الخصوص. المطلب الثاني: مدارس الكوفة الفكرية.

لقد كانت الحياة الثقافية في الكوفة منتعشة الاجواء، دائبة الحركة تنتشر بها حلقات العلم هنا وهناك ... وكان لبعض هذه المدارس كاناً منتقلاً، وبعضها كان امتداداً للمدارس الام فالاصل دون نزاع المدرتين العراقيتين في البصرة التي تأسست في العام الرابع عشر الهجري^(١٥). ومن اهم المدارس التي تأسست في الكوفة. أولاً: مدرسة القرآن الكريم.

لقد اتجهت مدرسة القرآن الكريم في الكوفة اتجاهاين:-

الاتجاه التدريسي: ويمثله ابن مسعود (ت ٣٢هـ)^(١٦) فقد كان صاحب مصحف معروف وكان مفسراً للقرآن وحافظاً له، وقد تابعه في ذلك تلامذته، ومن خلفهم مسروق بن الابدع (ت ٦٢)^(١٧) والربيع بن خثيم (ت ٦٣هـ)^(١٨)...

تعليم القرآن - الكريم - استناداً الى قول الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم "من احب ان يسمع القرآن غضباً فليسمعه من ابن ام عبدة" (...).

الاتجاه النصي؛ ويمثله الامام الباقر عليه السلام (ت ١١٤هـ) والامام الصادق عليه السلام (ت ١٤٨هـ).

الاقراء في الكوفة... كانت لمدرسة الكوفة ريادة الاقراء بعد ان بعث اليها ابن مسعود - رضوان الله عليه -^(١٩).

ثانياً: مدرسة الكوفة النحوية.

(مدرسة الكوفة النحوية حديثة العهد بالنشوء إذا قيست بمدرسة البصرة النحوية فقد سبقت البصرة الكوفة بهذه الدراسة التي كانت عملاً من الاعمال القرآنية. ثم اخذت

تستقل شيئاً فشيئاً، حتى اصبح موضوع دراستها: الكلام العربي، سواء كان قرأناً أم غير قرآن، وسواء كان شعراً أم نثراً...^(٢٠).
ثالثاً: مدرسة الكوفة الكلامية.

يصعب الحديث عن مشروع كلامي اثنا عشري في (عصر الأئمة) عليهم السلام لوجود من يمكن الرجوع اليه منهم في مسائل الكلام... وطوال القرنين الاول والثاني، كان لرجال الكوفة علاقتهم بالمدينة المنورة وحضور (فحول) في مجالس الكلام احتراماً (للإمام) المعمول الذي وصلت اليه نوبة المسؤولية العقيدية، عند اصحاب الأئمة الاثنا عشرية - الجعفرية) ممن اطلق عليهم (بالشيعة القطعية - الامامية)^(٢١) اتباع (مدرسة الصادق الكلامية التي يقصد بها المدرسة الكلامية الامامية التي قامت في المدينة المنورة، تحت رعاية الامام الصادق عليه السلام (ت ١٤٨ هـ) بعد قيام الدولة العباسية وكان معظم رجالها من الكوفة^(٢٢)).

المطلب الثالث:- مدرسة التصوف في الكوفة واشهر اعلامها. تميزت الكوفة عن غيرها من الامصار في انها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيت عليهم السلام وبمحبتهم ولما كان (التصوف هو المظهر الروحي والدين الحقيقي عند المسلمين، لأنه المرآة التي تنعكس على صفحتها الحياة الروحية الاسلامية في اخص مظاهرها فاذا اردنا ان نبحث عن العاطفة الدينية الاسلامية في صفاتها ونقائها وعنفها وحرارتها، وجدناها عند الصوفية^(٢٣)). ولقد تجلى التصوف بأهم الشخصيات التي دخلت الكوفة من الصحابة منهم:- عبد الله بن مسعود (الذي كان له الفضل في تأسيس مدرسة القرآن الكريم واقرائه وتفسيره بالكوفة باعتباره استاذها الاكبر^(٢٤) وعلى يده تكونت طائفة القراء في الكوفة باعتباره منشيء اول حلقة قرآية فيها^(٢٥) بثابن مسعود مواعظه واحاديثه في اجواء الكوفة مؤكداً لهم قصر الأجال ("انكم في ممر الليل والنهار في أجال منقوصة واعمال محفوظة والموت يأتي بغتة^(٢٦)."). ونقل الشعراني قي قولاً له (وكان يقول ههنا رجل يودانه اذا مات لا يبعث يعني نفسه)^(٢٧) ومن اعلام التصوف في الكوفة - حذيفة بن اليمان (ت ٣٦ هـ).

(كان حذيفة صاحب سر المصطفى صلى الله عليه وسلم في المنافقين يعلمهم وحده... عاش حذيفة في المدائن والكوفة عيشة اتسمت بالبساطة والزهادة، دليل ذلك قوله: "احب يوم اكون فيه حيث يأتي اهل بيتي فيقولون ما عندنا شيء نأكل لا قليل ولا كثير"... لقد كان لخطبه وعظاته تأثير السحر في نفسه اهل الكوفة^(٢٨)). وهناك شخصيات كثيرة من الصحابة نكتفي بما اردنا نموذجاً على سبيل المثال لا الحصر.

اما من التابعين (فكان من ابرز اعيان هذه المدرسة (سعيد بن جبير)^(٢٩) الذي ذكر انه "كان يبكي حتى عمشت عيناه"^(٣٠) و (ابن السماك)^(٣١) وكان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواظ... وهو كوفي قدم بغداد في زمن هارون الرشيد ومكث بها مدة ثم رجع الى الكوفة فمات بها. ومن كلامه: "من جرعتة الدنيا حللوتها بميله اليها جرعتة الأخرة مرارتها بتجافيتها عنه"^(٣٢). "لقد برزت هذه المدرسة للوجود واصبحت قلعة من قلاع الاسلام وامتد العالم الاسلامي بالعلم والمعرفة والتربية الروحية في السلوك"^(٣٣)). وقد اضاف الدكتور عفيفي شخصيات اخرى منهم عبدك الصوفي... ومن اشهر رجال هذه المدرسة طاووس بن كيسان... وقد ظهرت في الكوفة جماعة عرفوا بالروحانيين منهم حيان الحريري وكليب اللذان توفي قبل المائتين، وعلى يديهما ظهر تحول كبير في مدرسة الكوفة^(٣٤) وكذلك ابو هاشم الصوفي الكوفي^(٣٥) قال الجامي (اول من سمي بالصوفي ابو هاشم الصوفي وما سمي بهذا الاسم قبله^(٣٦)). ومنهم جابر بن حيان الكوفي (ت ١٧٨ هـ - ٧٩٤ م).

هو عربي من قبيلة ازد، كان والده صيدلياً في الكوفة (اقربادي) لكنه قتل في طوس بتهمة الدعوة للعباسيين في اخريات الدولة الاموية، عاش جابر في بغداد وصادق البرامكة وبعد نكبتهم فر الى الكوفة وعاش مستتراً فيها، ولم يعثر له على الشعر في الكوفة الا بعد قرنين من وفاته^(٣٧). لقد اتصل بالامام الصادق عليه السلام في المدينة المنورة الف مائة واثنى عشر كتاباً ابرزها كتاب الخواص الكبير الذي يحتوي على إحدى وسبعين رسالة^(٣٨). وغير هؤلاء الاعلام الكثير الذين تأثروا بالعوامل الروحية في الكوفة المتأصلة في مصادر الدين الاسلامي (ان العوامل الروحية الحقيقية التي كان لها اثر فعال في تنمية العاطفة الدينية والحياة الروحية عند المسلمين قد اخذت اصولها وبذورها منذ

ظهور الاسلام الى يومنا هذا. من الاسلام نفسه: أي من الكتاب والسنة^(٢٩) بالإضافة الى سيرة اهل عليهم السلام الذين كان اهل الكوفة على صلة وثيقة بهم. (وهذه الاصول وتلك البذور نبتت وترعرعت في ظل ذلك النظام الشامخ الذي اقامه صوفية المسلمين وجاهدوا من اجله. والناظر في تاريخ الاسلام الطويل الحافل بالاحداث لا يعجزه ان يرى كيف تغلغت روح التصوف في حياة المسلمين في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم^(٤٠).)

المبحث الثاني: العارف بهلول حياته وفضله.

المطلب الأول: حياة البهلول وسبب جنونه.

هو البهلول بن عمرو... الصيرفي أهل الكوفة^(٤١). العالم العارف الكامل الكاشف عن اسرار الفنون... العاقل العادل الكوفي الصوفي المشتهر بالمجنون - وقيل - اسمه وهب^(٤٢). او وهيب... كان رجلاً تقياً ورعاً زاهداً فقيهاً محدثاً اديباً عالماً^(٤٣). عاصر الامامين الصادق والكاظم عليهما السلام، (فكان من خواص تلامذة مولانا الامام الصادق عليه السلام، كاملاً في فنون الحكم والمعارف والأدب بل ومن جملة المفتين على طريقة اهل الحق في زمانه مقبولاً عند العامة أيضاً^(٤٤)) وقيل انه ابو وهيب الصيرفي المجنون^(٤٥) قال الكتبي: (وكان من عقلاء المجانين... استقدمه الرشيد او غيره من الخلفاء ليسمع كلامه... حدث عن ايمن بن نابل وعمرو بن دينار وعاصم بن ابي الجود... قال الاصمعي: رأيت بهلولاً قائماً ومنه فيض فقلت: ايش معك؟ قال: خبيص، فقلت: اطعمني، قال: هو ليس لي، قلت لمن هو؟ قال: لحمرونة ابنة الرشيد بعثته لي آكله لها... وقال الحسن بن سهيل: رأيت الصبيان يرمون بهلولاً بالحصى، فادمته حصة فقال:-

حسبي الله توكلت عليه من نواصي الخلق طراً بيديه

ليس للهارب في مهربه أبداً من راحة الى اليه

رب رام لي باحجار الأذى لم أجد أبداً من العطف عليه

فقلت له: تعطف عليهم وهم يرمونك؟ فقال: اسكت لعل الله يطلع على غمي ووجعي وشدة فرح هؤلاء فيهب بعضاً لبعض^(٤٦). وذكرت المصادر انه (توفي بهلول ببغداد سنة

فقال: ماجن ولكن فرّ بدينه منا، وبقي على ذلك الى ان مات وكان من عقلاء المجانين رحمه الله) (٥٣).

واما الرواية الثانية والتي مفادها (ان الرشيد لما جمع امره على قمع اثر مولانا الكاظم عليه السلام وجعل يحتمل في ذلك ارسل الى حملة الفتيا يستفتيهم عن اباحة دمه المعصوم عليه السلام متهماً اياه بداعية الخروج، فافتوه - قاتلهم الله جميعاً - بالاباحة سوى البهلول، وكان منهم فإنه لقي في سره الامام، واخبره بالواقعة، وطلب منه الهداية الى طريق النجاة، فأشار عليه السلام إليه بالتجنن في اعينهم واظهار السفه والهديان صيانة لنفسه ودينه، واقداراً له على احقاق الحق، وابطال الباطل كما يريد (٥٤).) ويمكننا التوفيق بين الروایتين حيث يمكن ان يكون الرشيد اراد توليته القضاء ليتنزع منه الموافقة على الحكم باهدار دم الامام الكاظم عليه السلام. فهو ليس بمجنون ولكنه تجانن لينجو بدينه من مدهنة الظالم والعمل بما يريده. فهو ليس من عقلاء المجانين بل هو من اعقل العقلاء. واذا كان الناس في وقته يرونه مجنوناً فان العلماء منهم يرونه كما يصفه الحائري (بهلول بن عمرو العاقل العادل الكوفي المشهور بالجنون، كان من خواص تلامذة الصادق عليه السلام، كاملاً في فنون الحكم والمعارف والأداب بل ومن جملة المفتين على طريقة اهل الحق واهله في زمانه مقبولاً عند العامة والخاصة (٥٥).) وذكر صاحب الروضات (قيل له يوماً وهو بالبصرة - أي بهلول - عدّ لنا مجانين البلد؟ فقال: كيف وهم لا يحصون. فان شئتُم اعدد لكم العقلاء (٥٦).)

المطلب الثاني: فضله.

لقد اجمع على فضله العامة والخاصة فمن فضله رحمه الله انه عاصر الامامين الهمامين الصادق والكاظم عليهما السلام. وكان كما ذكرنا من خاصة تلامذة الامام الصادق عليه السلام. ومن فضله أنه عاصر غير واحد من ملوك بني العباس ولكنه لم يخضع لظلمهم ولم يداهنهم في المشورة وقد ضحى بعقله ومكانته الاجتماعية فتجانن كي لا يلي القضاء ويعين ظالماً على ظلمه. فالجنون الذي تظاهره لم يكن ليقبل من قيمته الدينية فقد ورد ذكره وحكاياته في كتب المؤرخين من كل الاطراف وامتدحه كل منصف، وسنذكر بعض ما اخترنا من روايات فضله رحمه الله. ونبدأها بما اورده ابو السعادات

حيث نقل لنا في (الحكاية التاسعة عشرة: عن عبد الله بن مهران رحمه الله قال: حج هارون الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها اياماً، ثم ضرب بالرحيل، فخرج الناس وخرج بهلول المجنون رضي الله تعالى عنه فيمن خرج، فجلس بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به، اذا اقبلت هودج هارون فكف الصبيان عن الولوع به، فلما جاء هارون نادى بهلول بأعلى صوته: يا أمير المؤمنين، فكشف هارون السجاف بيد وقال: لبيك يا بهلول لبيك يا بهلول، فقال يا امير المؤمنين: حدثنا ايمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال: "رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنى على جمل وتحت رحل رث، فلم يكن ضرب ولا طرد ولا اليك اليك، وتواضعك في سفرك هذا يا امير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك"^(٥٧) فبكى هارون حتى سقطت الدموع على الارض ثم قال: يا بهلول زدنا يرحمك الله تعالى فقال:

هب انك قد ملكت الارض طراً ودان لك العباد فكان ماذا؟
ليس غداً مصيرك جوف قبرٍ ويمشوا التراب هذا ثم هذا.

فبكى هارون ثم قال احسنت يا بهلول، هل غيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، رجل أثاره الله مالاً وجمالاً فانفق من ماله وعف في جماله كتب في خالص ديوان الله تعالى من الابرار، فقال: احسنت يا بهلول مع الجائزة، فقال: اردد الجائزة على من اخذتها منه فلا حاجة لي فيها، قال: يا بهلول إن يكن عليك دين قضيناه فقال: يا امير المؤمنين لا يقضى دين بدين، اردد الحق الى اهله، واقض دين نفسك من نفسك، فقال: يا بهلول فنجري عليك ما يكفيك، فرفع بهلول رأسه الى السماء ثم قال: يا امير المؤمنين انا وانت من عباد الله تعالى فمحال ان يذكرك وينساني. فاسبل هارون السجاف ومضى^(٥٨). فانظر الى فضله كيف ينصح هارون الرشيد دون أن تأخذه في الحق لومة لائم وقد نقل ابن حبيب بسند عن الفضل بن الربيع قال: (حججنا مع الرشيد فمر بالكوفة في طباق المحامل إذا ببهلول قاعد يهذي ويلعب بالتراب، فابتدر اليه الخدم ليطرده، فقام وقال للرشيد: فكيف ولو اقامك الله بين يديه، فسألك عن النقيير والقطمير والفتيل؟ قال فخنقته العبرة. فقال الحاجب حسبك يا بهلول فقد اوجعت امير المؤمنين. فقال الرشيد:

دعه. فقال بهلول: انما افسده انت واقرباك فقال الرشيد: اني اريد ان اصلك بصلة. قال بهلول: ردها الى من اخذتها منه.

فقال الرشيد: محاجة؟ قال: لا تراني ولا اراك^(٥٩). ونقل عن ابي عبد الرحمن الاشهل قال: (قال ابي: قلت لبهلول المعتوه: أي شيء اولى بك؟ قال: العمل الصالح^(٦٠)). واقول لعمرى ما هذا كلام معتوه فتح الله له ابواب الحكمة والمعرفة فقد نقل عن احمد بن ابي الحواري يقول: (دخلت الكناسة بالكوفة فرأيت مجنوناً واقفاً قد حجز الناس عن الطريق، فلما رأني قال: مر يا احمد أنا بهلول اعرفك بعرفان. ثم انشأ يقول:-
حقيق بالتواضع من يموت وحسب المرء من دنياه قوت
فما للمرء، يصبح ذا اهتمام وشغل لا تقوم له النعوت
فيا هذا سترحل عن قريب الى قوم كلامهم السكوت^(٦١).)

قال صاحب الوافي: (حدث عن ابي ايمن بن نابل وعمر بن دينار وعاصم بن ابي النجود، وكان من عقلاء المجانين، وسوس، له كلام مليح ونوادير واشعار، استقدمه الرشيد أو غيره من الخلفاء لسمع كلامه^(٦٢)). وقال الحافظ الذهبي: (وما تعرضوا له بجرح ولا تعديل^(٦٣)). وقال ابو عثمان الحداد (بلغني ان بهلالولاً كان ذات يوم جالساً وعنده صاحبه رباح بن زيد الزاهد، اذ اقبل اخُ لبهلول في البادية يلهج بخبر المصر والزرع، والبهلول يتلقى ويتلون اغتماماً لرباح، لعلمه بكراهيته ذكر الدنيا واسبابها. فلما اكثر اخوه من هذا نهض وجعل يقول لبهلول: سقطت من عيني، تُذكر الدنيا في مجلسك ولا تُغير. فقال له البهلول: اذا لم اسقط من عين الله فلا ابالي من عين سقطت. فخر رباح على رأسه يقبله: نعم يا حبيبي يا بهلول لا تبالي من عين من سقطت، اذا المرء سقط من عين الله^(٦٤)) وعن ابي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن قال ابي كنت بالحيرة فغدوت يوماً فرأيت بهلولاً بجبانة كندة فقلت: يا بهلول: ان لي حاجة فادعوا الله لي؟ فاستقبل القبلة ورفع يديه ثم قال: يا من لا تحترق الجوارح دونه، اقض لعزير حوائج الدنيا والأخرة. قال ابو عبيد الرحمن: قال ابي: فوجدت لدعائه برداً على قلبي، فحللت من خرقة كانت معي درهمين فقلت: حاكهما. فقال: يا ابا محمد

انت تعلم اني أخذ الرغيف واشباهه. ولا أخذ على الدعاء أجراً فقال ابو عبد الرحمن قال لي: فما رجعت حتى قضيت حاجتي^(٦٥).

الخاتمة

بعد سياحة جميلة في الكوفة وطبيعتها ومدارسها واعلامها لاسيما العارف بهلول بن عمرو الكوفي الصوفي توصلت الى اهم النتائج ومنها:

١. ان الكوفة من الامصار الاسلامية التي كانت تعج بالعاطفة الدينية وتوهجت منها الحياة الروحية. وقد ظهر ذلك جلياً في الاعلام الذين عرضنا لهم في ثنايا البحث.

٢. ان التصوف الكوفي كان تصوفاً منضباً مقيداً بثوابت الدين ومصادره الاساسية وهي الكتاب والسنة وسيرة اهل البيت عليهم السلام.

٣. لقد كانت الكوفة حاضرة الاسلام المميزة فقد ظهرت فيها عدة مدارس فكرية القرآنية والكلامية والنحوية وكذلك مدرستها الصوفية.

٤. كانت مدرسة الكوفة الصوفية كما اثبتنا تمد العالم الاسلامي بالتصوف عن طريق اعلامها الذين نمت على ايديهم النزعة الروحية.

٥. ان الاعلام الذين اقاموا قواعد التصوف في الكوفة كانوا جميعاً على صلة وثيقة بائمة آل البيت عليهم السلام لاسيما بهلول الذي اخترناه نموذجاً فقد كان من خواص تلامذة الامام الصادق عليه السلام وكان مقرباً من الامام الكاظم عليه السلام.

٦. كان لاعلام هذه المدرسة سطوة فكرية فكان اعلامها يعظون هارون الرشيد ويكونه من شدة وعظهم وعدم خوفهم منه ومن سلطته الدنيوية كامثال ابن السماك وبهلول وغيرهم.

٧. كان اعلام هذه المدرسة يمتازون بقوة ايمانهم فلم تأخذهما في الحق لومة لائم ولا سطوة ظالم.

٨. لقد مزج بهلول حكمه ومواعظه بشيء من الفكاهة فكان يضحكهم ويكيهم ولكن المحصلة هي انه يصوغ الحكمة بطريقة لطيفة تستهوي قلوب الناس. فقد ادعى الجنون ليسلم بدينه.

٩. لم يكن الجنون الذي ادعاه البهلول ليقبل من قيمته العلمية او الاجتماعية لأنه ضحى بكل هذا لكي لا يكون اداة بيد الظالم يشرعن له ظلمه وجرائمه. التي يرتكبها. فرفض القضاء، أثر الجنون.

١٠. تميزت مدرسة الكوفة الصوفية أيضاً بانها من اقلام المدارس الصوفية في الاسلام بعد مدرسة مكة والمدينة.

١١. يذكر بعض مؤرخي التصوف ان أئمة اهل البيت عليهم السلام هم الذين ارسوا قواعد التصوف والعرفان في هذه المدرسة. ومن هؤلاء المؤرخين الكلبي في كتابه التعرف لمذهب اهل التصوف، والهجويري في كتابه كشف المحجوب.

١٢. وأخيراً أسأل الله العلي القدير ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه الكريم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على امام الاولين والآخرين محمد وآله الطيبين الطاهرين. ملخص البحث

ان الحديث عن مدرسة الكوفة الصوفية والعرفانية يسوقنا لمعرفة جوانب اخرى عن الكوفة، فلا بد من معرفة طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية والدينية فيها، ولا بد من معرفة الاسباب التي ادت الى نشأة التصوف والعرفان في الكوفة ، مبيين فضائل هذه المدينة فهي بمسجدها المبارك رابع مقدسات المسلمين.

لقد انتجت مدرسة الكوفة اعلاما يشار اليهم بالبنان لاسيما امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام، ومن ثم رهط من الصحابة رضوان الله عليهم ، الى كبار التابعين الذين ظهرت عليهم حلة الزهد واسم التصوف ممن اقاموا بالكوفة.

حتى تشكلت مدرسة صوفية عرفانية ، بابها الى رسول الله صلى الله عليه وآله امير المؤمنين علي عليه السلام. الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((يا علي ان الله قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة احب الى الله تعالى منها: هي زينة الابرار عند الله عز وجل الزهد في الدنيا.)) كذلك من الصحابة الذين لمعت اسمائهم في هذه المدينة ، عبدالله بن مسعود (ت ٣٢ او ٣٣هـ) وحذيفة بن اليمان (ت ٣٦هـ) وابوموسى الاشعري (ت ٤٢هـ) رضوان الله عليهم اجمعين .

الى جانب عدد كبير من كبار التابعين منهم اويس القرني (ت٣٧هـ) والربيع بن خثيم (ت٦٧هـ) وسعيد بن جبير (ت٩٥هـ) وطاووس بن كيسان (ت١٠٦هـ) وسفيان الثوري (ت١٦١هـ) وابن السماك (ت١٨٣هـ) وسفيان بن عيينة (ت١٩٨هـ) وعبدك الصوفي (ت٢١٠هـ).

وعلى خلاف من يرى انه لا توجد مدرسة صوفية عرفانية في الكوفة، فاننا نرى ان مدرسة الكوفة الصوفية العرفانية هي من المدارس الاساسية في التصوف الاسلامي القائم على الكتاب والسنة وسيرة رسول الله وآل بيته صلوات الله وسلامه عليهم. فزهدهم كان المعين الاول لهذه المدرسة . ونستدل على ما ذهبنا اليه بأن الباحثين في تسمية الصوفي وعلى من اطلقت اول مرة لم تتجاوز اقواله احد ثلاثة : ابو هاشم الصوفي الكوفي ، وعبدك الصوفي الكوفي ، وجابر بن حيان الكوفي. وجميعهم من الكوفة. ثم ان اسم الصوفي اطلق اولاً على زهاد الشيعة . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان المدرسة العرفانية في الكوفة لا يزال منهجها العرفاني موجود الى يومنا هذا وهذه ادلتنا على وجود مدرسة صوفية عرفانية في الكوفة وسنعرض تفاصيلها في هذا البحث ان شاء الله تعالى ، والله الموفق للصواب، والحمد لله رب العالمين وصلي اللهم على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

الهوامش:

(١) ينظر: ابن الأثير، ابو الفداء عبد الله القاضي، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م، ج٢، ص٣٧٥.

(٢) ينظر: البلاذري، فتوح البلدان، لجنة تحقيق التراث، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م، ص٣٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٧٤، ٣٧٥.

(٤) نهج البلاغة، بشرح: محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ج٣، ص٢.

(٥) المخزومي، د. مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر، ط٢، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م، ص١٢.

(٦) ينظر: يونس، د. منذر جلوب، مجتمع الكوفة في القرنين الاول والثاني الهجريين الامعان في الزهد والاحجام عن التصوف، بحث ضمن مؤتمر كلية الأداب، الجامعة المستنصرية المنعقد في ٢٢ - ٢٣ / ١١ / ٢٠١١م، المجلد الأول، ص١٦٠.

- (٧) الشيبلي، د. كامل مصطفى، الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٩م، ص ٢٥١.
- (٨) ابو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، دار الشعب، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٨٢، ٨٣.
- (٩) المصدر نفسه، ص ٨٢.
- (١٠) الشيبلي، د. كامل مصطفى، العلة بين التصوف والتشيع، ص ٢٨٤، ٢٨٥.
- (١١) ابو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحانية في الاسلام، ص ٨٣، ٨٤.
- (١٢) النشار، د.علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، دار المعارف، مصر، ط٧، ١٩٧٨م، ج٣، ص ٢١٧..
- (١٣) نيكلسون، رينولد، في التصوف الاسلامي وتاريخه، ترجمة: ابو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م، ص ٦٨.
- (١٤) الجامي، ابو البركات عبد الرحمن بن نظام الدين احمد الدشتي، (ت ٨٩٨هـ)، نفحات الانس من حضرات القدس، طبعة الازهر، مصر، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ٦٦.
- (١٥) هناء حسين علوان، مدرسة الكوفة الحديثة في القرنين الاول والثاني، رسالة ماجستير، جامعة القادسية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٧م، ص ١٠.
- (١٦) الامام الحبر، فقيه الامة ابو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب.. الهذلي المكي المهاجري البدري، حليف بني زهرة، كان من السابقين ومن النجباء العالمين، شهد بدرًا وهاجر الهجرتين، ينظر: الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج١، ص ٤٦٢.
- (١٧) ابن الاجدع الامام القدوة العلم، ابو عائشة الادعي، الكوفي، مسروق بن عبد الله بن مر بن سلمان بن معمر... بن وادعة.. ومراده في كبار التابعين ومن المخضرمين الذين اسلموا في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ينظر: الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج٤، ص ٦٤.
- (١٨) الربيع بن خثيم بن عائذ، ابو يزيد الثوري الكوفي، الامام القدوة العابد، احد الاعلام ادرك زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ينظر: الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج٤، ص ٢٥٨.
- (١٩) ينظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر الخضير، (ت ٩١١هـ)، الاتقان في علوم القرآن، مطبعة حجازي، المكتبة التجارية الكبرى، بمصر، ط١، ١٣٦٨هـ، ج١، ص ١٢١، وكذلك ينظر: هناء حسين، مدرسة الكوفة في القرنين الاول والثاني، ص ١٣، وأيضاً ينظر: وداد حسن طوفان، مدينة الكوفة عمارتها، نشأتها، تطورها، بحث مقدم الى كلية الآداب، جامعة القادسية، قسم الآثار، ص ١٠، ١١.

- (٢٠) المخزومي، د. مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر، ط٢، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م، ص ٦٤.
- (٢١) ينظر: الجابري، د. علي حسين، جدل الخاص والعام، دراسة في اقليم الكوفة الحضاري والسؤال الفلسفي، دار نينوى، دمشق، سوريا، ٢٠١٠م، ص ١٦٧.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ١٧٦.
- (٢٣) ابو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، ص ٩٦.
- (٢٤) ينظر: الزبيدي، محمد حسين، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الاول الهجري، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٨٧.
- (٢٥) النشار: د. علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، ج ٣، ص ٢١٩.
- (٢٦) ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت ٥٩٦هـ)، صفوة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري، دار الوعي، حلب، ط١، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ج ١، ص ٤٠٨.
- (٢٧) الشعراني، عبد الوهاب بن احمد بن علي، (ت ٩٧٣هـ)، الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الانوار في طبقات الاخيار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م، ج ١، ص ٢٢.
- (٢٨) المحمدي، د. عبد القادر موسى، مدرسة العراق الصوفية، امل الجديدة طباعة نشر وتوزيع، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠١٢م، ص ٦٩، ٧٠.
- (٢٩) سعيد بن جبير وهو من كبار زهاد عصره، قتله الحجاج سنة ٩٥هـ، ينظر: الشعراني، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٤٢.
- (٣٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢.
- (٣١) وهو ابو العباس محمد بن صبيح الذكر مولى بني عجل المعروف بابن السماك القاضي الكوفي والزاهد المشهور، ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق، د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ج ٢، ص ٣٠٢.
- (٣٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٢.
- (٣٣) الويسي، د. ياسين حسين، التصوف والعرفان الاسلامي، دراسة في المفاهيم والاصول والنظريات، دار الزمان، دمشق، سورياً، ط١، ٢٠١٧م من ص ٣٤، ٣٥.
- (٣٤) ينظر: ابو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، ص ٨٢، ٨٣.
- (٣٥) سبق ترجمته، ينظر: جاجي عبد الرحمن، نفحات الانس، ص ٦٦.
- (٣٦) المصدر نفسه، ص ٦٧.
- (٣٧) ينظر: الجابري، د. علي حسين، جدل الخاص والعام، ص ٥٥.

- (٣٨) ينظر: الطائي، فاضل احمد، اعلام العرب في الكيمياء، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م، ص٤٦، ٤٥.
- (٣٩) ابو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، ص٩٦.
- (٤٠) المصدر نفسه، ص٩٦، ٩٧.
- (٤١) ناصر الباقرى البيدهندي، بهلول ومواقفه المشرفة، دار الشهيد، معهد الدراسات العلمية والثقافية، (د، ط، ت)، ص١٥.
- (٤٢) الخونساري، الميرزا محمد باقر الموسوي، (ت ١٣١٣هـ)، روضات الجنات في احوال العلماء والسادات، عنيت بنشره مكتبة اسماعيليان، المطبعة الحيدرية، طهران، ١٣٩٢هـ، ج٢، ص١٥٨.
- (٤٣) ناصر الباقرى، بهلول ومواقفه المشرفة، ص١٥.
- (٤٤) الخونساري، روضات الجنات، ج٢، ص١٣٣.
- (٤٥) الصفدي، صلاح الدين خليل بن ابيك، (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: احمد الارناؤوط، وتركي مصطفى، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج١٠، ص١٩٤.
- (٤٦) الكتبي، محمد بن شاكر، (ت ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٣م، ج١، ص٢٢٨، ٢٢٩، اما الذهبي فيذكر انه من وفيات ١٩٧هـ، ينظر: تاريخ الاسلام، ج٤، ص٨٧.
- (٤٧) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٩. وذكر ابن الجوزي انه توفي في سنة ٩٢م، ينظر: صفة الصفوة، ج٢، ص١٩.
- (٤٨) وهي بنت جعفر بن المنصور ابنة عم هارون وزوجته، اسمها امة العزيز وقيل سكينه، ينظر: ابن خلكان.
- (٤٩) ناصر الباقرى، بهلول ومواقفه المشرفة، ص١١٠، وفيات الاعيان، ج٢، ص٣١٤.
- (٥٠) ديوان لبيد بن ربيعة بشرح الطوسي، تحقيق: حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٣١٦.
- (٥١) سورة الأنعام: الآية (٧٦).
- (٥٢) ابن حبيب ابو القاسم الحسن بن محمد، (ت ٤٠٦هـ)، عقلاء المجانين، تحقيق: الدكتور عمر الاسعد، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص٣٩، ٤٢.
- (٥٣) الخونساري، روضات الجنات، ج٢، ص١٣٤، ١٣٥، ونقل ذلك أيضاً السيد نعمة الله التستري (رحمه الله)، في كتابه (غرائب الاخبار).

(٥٤) الخونساري، روضات الجنات، ج ٢، ص ١٣٣، ١٣٤. نقل ذلك عن "تاريخ اربل لابن المستوفي مبارك احمد اللخمي، ص ٣٢١، كذلك ينظر: ناصر الباقرى البيدهندي، بهلول ومواقفه المشرفة، دار الشهيد، (د، ط، ت)، ص ١٨، ١٩.

(٥٥) الحائري، الشيخ محمد حسين الاعلمي، (ت ١٣٩٣هـ)، دائرة المعارف الشيعية، مؤسسة الاعلمي، بيروت، لنان، (د، ت)، ج ٤، ص ٣٣٣، ٣٣٤.

(٥٦) الخونساري، روضات الجنات، ج ٢، ص ١٣٧. وكذلك: ناصر الباقرى، بهلول ومواقفه المشرفة، ص ٩٠.

(٥٧) ينظر: ابن كثير اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ج ٣، ص ٦٦٤، ٦٦٥، وأيضاً: ابن الجوزين صفة الصفوة، ج ٢، ص ٣٥٦. الحديث اخرجه النسائي ابي عبد الرحمن احمد بن شعيب، (ت ٣٠٣هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، كتاب المناسك، ج ٤، ص ١٨٠، حديث رقم ٤٠٥٣.

(٥٨) اليافعي، ابو السعادات عفيف الدين عبد الله بن اسعد بن علي اليمني ثم المكّي، (ت ٧٦٨هـ)، روض الرياحين في حكايات الصالحين، وضع حواشيه: عبد الجليل عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، ص ٦٥. وأيضاً ابن حبيب، عقلاء المجانين، ص ١٤٩.

(٥٩) ابن حبيب، عقلاء المجانين، ص ١٤٠.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٦١) ابن حبيب، عقلاء المجانين، ص ١٤٣.

(٦٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ١٩٤.

(٦٣) الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان، (ت)، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م، وفيات ١٩٠، ص ٨٩.

(٦٤) العفاني، د. سيد بن حسين، زهرة البساتين من مواقف العلماء والربانيين، دار العفاني، القاهرة، (د، ت)، ج ٢، ص ٣٣٨.

(٦٥) ابن حبيب، عقلاء المجانين، ص ١٤١، ١٤٢.